

- تجريبية جون لوك :

لكل عصر حق مشروع في أن يضع كل الفلسفات التي ورثها في ميزان النقد وأن يتمثل الفكر الفلسفي من جديد وأن يعيد اختبارها على ضوء مقوماته ومتطلباته الخاصة، كان هذا حال المذهب التجريبي الذي سعى إلى إعادة اختبار المشكلات المعرفية التي أثارها المذهب العقلاني الذي سعى بدوره إلى بناء نسق فلسفي قائم على مفاهيم ومبادئ عقلية، إذ تعد فكرة إعادة النظر في عملية بناء المفاهيم من أهم عمليات تأسيس المعرفة العلمية، فالمفاهيم هي اللبنة التي نبني بها صروحنا النظرية والفكرية، باعتبار أن هذه المفاهيم يبدعها الفلاسفة، عندما يتحدثون عن موضوعات لها صلة بالواقع الخارجي الذي يتضمن مجموعة من الظواهر أو الأشياء التي يتفاعل معها الفيلسوف ويستخلص حقائقها أو عندما ينظر إليها من حيث المبادئ العقلية التي تتوفر عليها العقل الإنساني، أو من زاوية احتوائها على المعاني الكلية أو الأفكار العامة، لذلك انتبه التجريبيون إلى إعادة تفعيل السؤال القائل : كيف تتشكل المفاهيم؟

1- مسألة المعرفة:

إن الفلاسفة قد أدركوا في العصر الحديث، أن الوصول إلى بناء معرفة صحيحة يقتضي التمسك بمنهج سليم من أجل حصول الفهم، هذا العصر الذي آمن بأن لكل مشكلة حلاً علمياً عقلانياً، فالرؤية العاقلة المؤسسة على المنهج الصحيح، هي وحدها القادرة على النفاذ إلى عمق الموضوع، والإحاطة بأصوله ومقوماته وسبر أغواره، والكشف عن أسراره ومعانيه، ذلك أن التجريبيين لم يتقبلوا المفاهيم التي تداولتها ألسنة الفلاسفة العقلانيين، لكونها أصبحت مفاهيم شاحبة ليس فيها دم الحياة؛ فهي غير قادرة على الصمود أمام تصاعد المد التجريبي، لأن تاريخ الفكر الفلسفي هو تاريخ التحولات، إذ يمثل بنية تتشكل على ضوء التنوع والتعدد الفكري، إذ لم يعد الفكر الإنساني مغلقاً على نفسه، بل أصبح أكثر انفتاحاً على العالم الخارجي عبر شبكة من المعارف التي تنسجها الخلايا الحسية داخل مقرات العقل.

إن المشكلة التي تواجه المذهب التجريبي، هي مشكلة أصل العلم الإنساني ومصدره، هذا المذهب الذي بدأت تشكيلاته تعرف مسارا متقدما عند "جون لوك" John Locke (1632-

1704)، و"دافيد هيوم" David Hume (1711-1776)، إذ يرى هؤلاء أن توضيح المسائل المعرفية والمفاهيمية ضرورة منهجية ومعرفية لدفع الفكر الفلسفي نحو التقدم، وذلك بتحليل أصول المشتقات المفاهيمية وكيفية عبورها إلى العقل حين تتم عملية القيام باستقصاء الوضع المعرفي الذي تركته التوجهات العقلية الديكارتية التي رسخت مفهوم "الأنا أفكر" الذي يعتبر مفهوما فلسفيا جديدا في ثقافة الفلسفة الحديثة، فظهرت الردود التجريبية، التي أرادت أن تؤثت الفكر الفلسفي بمفاهيم ومصطلحات جديدة تتعايش مع السياقات المعرفية التي تدمج الإنسان بواقعه وتحدث توسعا كبيرا في هذه الإشكالية، والتعمق في عملية البحث عن الأدوات التي تمكن من العلم بالأشياء وتحديد مسالكها ومصادرها واتصال قوى الإدراك بالشياء المدرك، أو علاقة الأشياء المدركة بالقوى التي تدركها، لذلك استوجب الأمر العناية بأهمية موضوع الإدراك وطبيعة العلاقة بينه وبين الذات المدركة.

هذه التحركات الفكرية التي ساهمت في الانقلاب المعرفي، قامت بخلخلة قواعد العقلانية المتمركزة حول الذات، فكانت تمهد الإعداد لمشروع فلسفي يجسد سمة العصر الذي يعيد طرح إشكالية الجهاز المفاهيمي القائم في الموروث المعرفي، وذلك برفض كل المسلمات النظرية السابقة التي مكثت طويلا داخل التراث الفلسفي، فيذهبون إلى التأكيد على فكرة أن المفاهيم تأتي من التصورات الواقعية، فالمفهوم يشتق من الحواس والصور والذكريات التي تنجلي في عمق الفكر، " بحيث لا يوجد شيء في الذهن إلا وقد سبق وجوده في الحس"⁽¹⁾.

إن الفلاسفة التجريبيين، قد أعلنوا في وقت مبكر تمسكهم بفحص المفاهيم والأفكار التي تستدعي تقليب أمورها على جميع وجوهها وتكرار النظر فيها ومواصلة اختبارها، كما يستندون إلى مبادئ واقعية في نظرهم إلى مسألة المعرفة ويفرضون كل المسلمات النظرية ويستأنسون بالجوانب المادية، فيرجعون كل علم إلى التجربة ويقولون بأن التجربة هي مصدر كل معارفنا، وأن العقل الإنساني كما يقول "لوك"، أشبه بورقة بيضاء تنطبع بآثار التجربة عليها دون أن تكون محتوية على أية أفكار فطرية، فالتصورات والأفكار المكتسبة تستمد من العالم الخارجي عن طريق الإحساس والتأمل، فالأفكار تأتي من الإحساس عندما نكون علاقات خارجية مع الأشياء، أما عندما نتأمل في ذواتنا، فإننا نكون نشاطات سيكولوجية.

⁽¹⁾– L. Meynard : La Connaissance, Librairie Belin, Paris, 1967, p. 106.

مادام الأفكار تأتي من هذين المصدرين، فلا توجد هناك ملكة أخرى تعطي مصدرا للأفكار. فالفكرة مصطلح قديم يعود أصله إلى " أفلاطون"، فهو أول من أدخل هذا المصطلح إلى الفضاء الفلسفي، لكن ليس هناك تعريف واحد للفكرة، فالفكرة عند "جون لوك" هي التي تكون موضوعا للفهم، والفهم يقتضي وجود علاقة وطيدة بين الأفكار المجردة والكلمات العامة، فالأفكار يتم التعبير عنها عن طريق اللغة، وبالتالي فهي تمتلك أساسا لغويا، فتكوين اللغة يخضع إلى نفس الطبيعة التي تتكون بها الأفكار، فالأفكار هي علامات للأشياء والكلمات هي علامات الأفكار"⁽¹⁾.

2- المسألة اللغوية :

فاللغة هي الحامل الحقيقي لمختلف المعارف التي يتمتع بها الإنسان؛ وهي الأداة لتوصيلها، لهذا يميز "لوك" بين الكلمة والفكرة، فالفكرة هي المحتوى الذهني حول موضوع ما، بينما الكلمة هي إشارة للفكرة، مادام الكلمات هي إشارات للأفكار كان طبيعيا أن تختلف لغات الناس، لكن هذا الاختلاف لا يمس بالأفكار، فالفكرة أو الصورة التي تمتلكها حول الإنسان هي نفسها، فالإشارة إلى هذه الأفكار شيء طبيعي بينما اللغة شيء اصطلاحي يعود إلى اتفاق الناس حول استعمال هذه الفكرة أو تلك .

وهذا ما حصل مع "كوندياك" (1714-1780) (Étienne Bonnot de Condillac) حين تصور أن وظيفة اللغة تعمل على ترقية الفكر، " فاللغة لا تمثل طريقة فضلى في التحليل، وإنما يمكن اعتمادها كأداة ضرورية في تطوير سبل الفكر"²، هذا الفكر يتجلى أثره في علاقته بمختلف الموضوعات، "ويكون ذلك على أساس استعمال اللغة التي تؤدي دوراً مهماً في تشكيل مباشر للمفاهيم"¹ .

يذهب "لوك" إلى أن كل الأفكار يرتد أصلها إلى الحواس، باعتبارها المصدر الأول لتلقي الانطباعات والإدراكات، والأفكار عنده هي ما يشكل كل محتوى المعرفة الإنسانية، لذلك انصب بحثه حول كيفية حضورها في الذهن، ولا تجد سبيلا تأتي به هذه الأفكار إلى الذهن إلا عبر الإدراكات التي تكون الحواس مصدرها.

(1)– G. Gaston Granger: Langages et Epistémologie, Editions Klincksieck, 1979, p.12.

²- Nicolas Rousseau : Connaissance et Langage chez Condillac, Librairie Droz, Paris , 1986, p.91.

¹- G.G.Granger: Pour la connaissance philosophique, éd, Odile Jacob, 1988, p. 16.

ويميز "جون لوك" في عملية الإدراك بين الصفات الأولية والصفات الثانوية. والمقصود بالصفات الأولية، هي تلك الصفات الثابتة في الشيء مثل الشكل والامتداد. أما الصفات الثانوية فهي ليست ثابتة في الشيء، لأنها مجرد قوى تثير فينا إحساسات مختلفة مثل الألوان والطعوم، فالكرة مثلا يمكن أن تكون بيضاء أو حمراء. لكن وجودها يتوقف على صفاتها الجوهرية، فهي من حيث الشكل مستديرة ولا يمكن أن تكون غير ذلك. وهذا يعني أن إدراكنا للأشياء الخارجية يتوقف على صفاتها الأولية لا على صفاتها الثانوية.

هذه الصفات أو الكيفيات الحسية قد تكون مترابطة في الشيء، فإنها تحدث صورا على مستوى الذهن وتصل معزولة عن لواحقها المادية، فتكون عندئذ مهمة العقل القيام بعملية الربط بعضها ببعض مشكلا بها إدراكا متميزا يقترب من اليقين، "فاليقين يقوم في العقل، أي : في أفكارنا عن الأشياء، وليس في الأشياء ذاتها. فمعرفةنا لا تتجاوز حدود الحالات الخاصة، خارج أنفسنا. فالتأمل في أفكارنا المجردة وحده قادر على إعطائنا المعرفة العامة" ².

3- الفهم:

يذهب "لوك" في اعتقاده، أن الفهم هو الملكة التي تميز الإنسان عن باقي الكائنات الحية، ولذلك فإن البحث فيها يجب أن يحظى بالأولوية القصوى، ذلك أنه إذا اعتبرنا أن العين هي وسيلة الإنسان لرؤية الأشياء، فإن الفهم هو وسيلة في الإدراك والمعرفة، فالفيلسوف قبل أن ينشغل بإنتاج أي نوع من المعارف أو المفاهيم، فمن الواجب عليه أن يبدأ أعماله بالبحث في الفهم الذي هو أداة المعرفة، هذا يقودنا إلى فكرة هامة، وهي أن "جون لوك" كان يحمل انهماما فلسفيا مفعما بالتغيرات الفكرية التي تسعى إلى التحرر من الوضع المعرفي القائم في جميع المستويات العلمية والسياسية والاجتماعية والدينية، لهذا اعتقد بأولوية سؤال المعرفة على غيره من الأسئلة الفلسفية التي كانت تطبع روح العصر، فجعل العقل مقيدا بالتجربة في جميع توجهاته، لأن مبدأ التجربة الذي وصل إليه كان عن طريق تعريته من الأفكار الفطرية.

إن الخبرة التجريبية في فلسفة "جون لوك"، تحفل بالتعبير الفلسفي والإبستمولوجي الراض للأفكار الفطرية التي أطلقها "ديكارت"، لذلك اتسمت رؤيته بمحشد مفاهيمي يحمل عناصر فلسفية

² - محمد سليمان حسن: دراسات في الفلسفة الأوروبية، منشورات دار علاء الدين، سوريا، 2008، ص 30.

جديدة، تقوم على الفهم التجريبي للأفكار التي يحملها الذهن البشري، لأن الأسئلة التقليدية التي طرحت في السابق مازال وهجها قائما في قضايا المعرفة والفكر والذات الإنسانية والنفس والعالم والألوهية.. "ذلك أن التجريبيين الذين اتبعوا لوك سيطروا على أوروبا بهجوم خاطف كانوا نقادا بالأساس : وهم إذا وقفوا وجها لوجه أمام مجموعة من العقائد التجريبية التي كانوا ينكرونها بعمق وخاصة في الدين والأخلاق والسياسة فقد استعملوا طريقتهم ليرموا بالتقليد جانبا وليمهدوا الطريق لأفكار أفضل وحدث "1.

وبهذا تمثل تجريبية "جون لوك" بطرحها الواقعي قد أعطت تقديرا بالغاً للمنحى العلمي، الذي يمثل عصر التطورات المعرفية والثورات التي بسط فيها العلم نفوذه بشكل كبير، وتقويض أسس الفلسفة العقلانية وزحزحة البداهة الفكرية التي كانت قوم عليها في مسألة الأفكار الفطرية، فتمكنت إلى حد بعيد من ارساء ثقافة علمية جديدة، وهذا ما تجلّى بعناية في قضية الاهتمام بنظرية المعرفة التي أسهمت في احداث انقلابات هائلة على المستوى السياسي والاخلاقي والديني، لذلك كانت أفكاره مقدمة مضيئة لكثير من فلاسفة الأنوار.

1 - جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث، ترجمة جورج طعمه، دار الثقافة بيروت، (د ، ت)، ص 396-397.